(٣)

الغزالي.. وحسن الهضيبي

obeikandl.com

obeikandl.com

الغزالي.. وحسن الهضيبي

الغزالي والهضيبي في أيام الرضا

كانت علاقة الشيخ الغزالي بالأستاذ حسن الهضيبي ــ المرشد الثاني للإخوان المسلمين ــ علاقة طيبة، منذ اختاره الإخوان قائداً لمسيرتهم، ورضوا به إماماً لجماعتهم. وكان يصطحبه معه في رحلاته الدعوية إلى الأقاليم ويكلفه ببعض الكتابات الدعوية، التي يراه أقدر عليها من غيره. كما رأينا ذلك في الرد على ذلك القبطي الذي تطاول على الإسلام وشريعته وحضارته وتاريخه، وظهر ذلك في كتاب: (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام).

وظلت هذه العلاقة حسنة، حتى ظهرت على المسرح السياسي ثورة ٢٣ يوليو، وعجزت عن احتواء الإخوان الذين وقفوا إلى جوارها، وشدوا أزرها، وحموا ظهرها، فلجأت إلى أسلوب أخبث وأمكر، وهو: محاولة الإيقاع بين قادة الجماعة، حتى يسوء ظن بعضهم ببعض، واستطاع جمال عبد الناصر أن يستغل بعض المواقف للاصطياد في الماء العكر.

وهكذا استطاع أن يوقع بين قيادة النظام الخاص وقيادة الجماعة، حتى أدى ذلك إلى احتلال مجموعة من الشباب المتحمس المركز العام، والتمرد على قرارات القيادة المبايَعة. كما استطاع أن يوغر صدور جماعة من القادة القدامى، حتى وقفوا مع هذا الشباب الثائر ضد قيادته. وكان من هؤلاء أربعة معروفون من خيرة الإخوان جهاداً وسابقة وخدمة للدعوة، ومحبة لدى جماهير الإخوان. كان

منهم الشيخ الغزالي[1].

وفي هذا الجو الملبد بغيوم الفتنة المحبوكة صدر قرار القيادة بفصل الأعضاء الأربعة من الجماعة. وبهذا بلغت الفتنة هدفها، وحققت مآربها.

الغزالي في غضبه

وقد تخالف الغزالي أو يخالفك، في قضايا تصغر أو تكبر، وتقل أو تكثر، ولكنك ــ إذا عرفته حق المعرفة ــ لا تستطيع إلا أن تحبه وتقدره، لما تحسه وتلمسه من إخلاص لله، وتجرد للحق، واستقامة في الاتجاه، وغيرة صادقة على الإسلام.

صحيح أنه أخذ على الشيخ أنه سريع الغضب، وأنه إذا غضب هاج كالبحر، حتى يغرِق، وثار كالبركان حتى يُحرِق!

وقد ظهر هذا في خلافه مع الأستاذ الهضيبي ــ المرشد الثاني للإخوان ــ وما كتبه عنه في مجلة الدعوة، ونشره في كتابيه: (في موكب الدعوة) و(من معالم الحق).

وهذا ما لا يجحده الشيخ الغزالي، وما يعلمه من نفسه، ويعلمه من عايشه وعاشره.

وسر هذا أن الرجل يبغض الظلم والهوان لنفسه وللناس، ولا يحب أن يَظلم أو يُظلم، ولا أن يستخف بكرامة أحد، كما لا يستخف بكرامته أحد، كما أنه لا يطيق العوج ولا الانحراف، وخصوصاً إذا لبس لبوس الاستقامة، أو تستر بزي الدين، فهو الذي يقاتله سراً وعلانية.

---

(١) هؤلاء الأربعة، هم الأساتذة: صالح عشماوي وكيل الإخوان، والدكتور محمد سليمان، وأحمد عبد العزيز جلال، بالإضافة إلى الشيخ الغزالي، وكلهم أعضاء في الهيئة التأسيسية للإخوان.

فإذا رأى ظلماً أو عوجاً ــ في رأى نفسه على الأقل ــ لم يستطع أن يغلق فمه أو يغمد قلمه، بل صب عليه جام سخطه، ولم يحفل بما يصيبه من شرر الصدام.

ولكن يكمِّل هذا أن الشيخ لا يفجُر في خصومته، ولا يفتري على خصمه، أو يتمنى له السوء، أو يشمت به إذا نزل به بلاء، إنما هو كما قال القائل: رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت!

ثم إن من صفات الشيخ الغزالي أنه ــ إن كان سريع الغضب ــ فهو سريع الفيء، رجاع إلى الحق إذا تبين له، ولا يبالي أن يعلن خطأه على الناس علانية، وهذه شجاعة لا تتوافر إلا للقليل النادر من الناس. فهو شجاع عندما يهاجم ما يعتقده خطأ، شجاع عندما يعترف بأنه لم يحالفه الصواب فيما كان قد رآه.

لقد كان له رأي في سياسة الأستاذ حسن الهضيبي، ونقد بعنف هذه السياسة، وازداد عنفه حينما أعلن فصله من دعوة الإخوان، التي قضى فيها شبابه، ونذر لها عمره، ولم يكن يتصور أن يأتي يوم يبعد فيه عن دار كان أحد بناتها وحملة حجارتها. وكان إذا لامه لائم على حدّته يتغنى بقول الشاعر القديم:

وقالوا: قد جننتَ فقلتُ: كلا ... وربِّي ما جننتُ ولا انتشيتُ!
ولكني ظلمتُ فكدت أبكي ... من الظلم المبيّن، بل بكيتُ!
فإن الماء ماء أبي وجدي ... وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ!

وكان مما هاج غضبه، واستثار غريزة الدفاع فيه: أن بعض أولي الهوس من الإخوان هدده وتحدّاه، كما حكى ذلك الشيخ في بعض كتبه، قال:

«إن ميدان العمل لله ورسوله أرحب من أن يحتك فيه متنافسون، وأسمى من أن يشتبك فيه متشاكسون!

وقد كنت حريصاً على الصمت الجميل يوم عرفت أني سأعمل للإسلام

وحدي، بيد أن أحداً من خلق الله اعترضني ليقول لي: إن تكلمت قُتِلت(!)، فكان ذلك هو الحافز الفذ على أن أتكلم وأطنب.

إن اللفظة الرقيقة تطوق عنقي فأستسلم، أما التحدي فإنه يهيج في طبيعتي غرائز الخصام.

وقد يرى القارىء فيما كتبته هنا، أو فيما كتبته من قبل، خطأ في فكرة، أو جور في عاطفة، أو شذوذاً في نفس، يجب أن تُحذر وأن تحاصر!! ليكن ذلك كله أو شيء منه، فهذه نفسي، وهذه صحائفي، وأرجو ألا أتملق إلا ربي، وألا أهتم لأحكام الناس. . .»!

ومع هذا حين تبين له طغيان عبد الناصر، وسوء موقفه من الإسلام، ومن دعوة الإخوان، وسمع ما سمع عن التنكيل والتعذيب الذي تجرع مرارته إخوانه في السجون والمعتقلات، وعن صلابة الأستاذ الهضيبي وثباته في وجه الجبابرة، وأنه لم يحن لهم رأساً، ولم يوطىء لهم ظهراً ــ غيّر موقفه من المرشد الهضيبي ونوه بموقفه، وأشاد بإيمانه ورجولته، وحين أفرج عنه، سارع بالذهاب إلى منزله، ليهنئه ويصافحه بحرارة وإخلاص، وقد قابله المرشد بنفس الحرارة، وروح الأخوة، التي كانت دائماً إحدى السمات الأولى المميزة لعلاقات الإخوان بعضهم ببعض.

بعد أن كتب الغزالي ما كتب من مقالات ــ في فترة الغضب بعد فصله من الجماعة ــ رأى أن يطوي بعضها فلا ينشره في كتاب، ونشر بعضها ثم حذفه، بعد أن هدأت نفسه، واستجابت لنصح بعض إخوانه.

وأبقى بعض الأشياء ــ على ما فيها من آثار الحدَّة والغضب ــ للتاريخ، ومع هذا عقب في إحدى الحواشي عليها بقوله:

في هذه الصفحات مرارة تبلغ حد القسوة، وكان يجب ألا يتأدى الغضب بصاحبه إلى هذا المدى، بيد أن ذلك ــ للأسف ــ ما حدث. وقد عاد المؤلف إلى

نفسه يحاسبها وتحاسبه في حديث أثبته آخر هذا الباب»[1].

ثم عاد آخر الباب إلى الحديث عن الأستاذ الهضيبي ــ رحمه الله وأكرم مثواه ــ فقال:

«إنه ما ادعى لنفسه العصمة، بل من حق الرجل إن أقول عنه: إنه لم يسع إلى قيادة الإخوان، ولكن الإخوان هم الذين سعوا إليه، وإن من الظلم تحميله أخطاء هيئة كبيرة مليئة بشتى النزعات والأهواء.

ومن حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقي في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل، حتى خرج من السجن.

الحق يقال... إن صبره الذي أعز الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا... على حين خرج من السجن أناس لم تبق المصائب لهم عقلاً.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر الله لنا أجمعين». اهـ.

حكى لي الأخ الفاضل الدكتور مالك الشعار ــ القاضي الشرعي بلبنان ــ مشهداً رآه بعينيه من الشيخ الغزالي رفعه عنده مكانة فوق مكانته. قال: كنا في جنازة أظنها كانت لزوجة الإمام الشهيد حسن البنا، والتقى فيها الأستاذ الهضيبي والشيخ الغزالي، فما راعني إلا رأيت الغزالي يحاول أن يمسك بيد الهضيبي، يريد أن يقَبّلها. والهضيبي يأبى، والشيخ يصر، فازددت والله إكباراً وإجلالاً للغزالي على هذا التواضع العجيب، مع أنه كان في ذلك الحين ملء الأسماع والأبصار. ولكن هكذا تكون أنفس الدعاة الكبار!

---

(١) حاشية ص ٢١٦ من معالم الحق.

وكان مما هز الشيخ الغزالي وقدّره من مواقف الأستاذ الهضيبي، أنه أوصى في مرض موته أن يدفن في مقابر الصدقة، التي يدفن فيها الفقراء والغرباء! وهو من هو منزلة ومنصباً وجاهاً. فهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الرجل من الله بمكان أي مكان!

وقد سجل هذه المأثرة للرجل الكبير، مقدراً ومتأثراً في بعض كتبه فقال:

«من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي ـ المرشد الثاني لجماعة الإخوان ـ وبلغتني وصيته: لقد أوصى أن يدفن خفية، لا إعلان ولا مواكب، وطلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة.

وعقدت لساني دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة (في مقابر الصدقة)!

إنني أعرف حسن الهضيبي، وقد أصلحت ما بيني وبينه قبل أن يموت بنحو عامين...

في نفس هذا الرجل ترفع وأنفة لا يتكلفها، وهو إذا اعتقد شيئاً استمات فيه دون لف أو مكر...

قلت: لم مقابر الصدقة؟!

ولم يغب عني الجواب. لقد كان مستشاراً راسخ المكانة، رفيع الهامة.

لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التي نالها غيره.

ولو خدم الغزو الثقافي لعاش في شيخوخته موفور الراحة، مكفول الرزق.

ولكنه خدم الإسلام، فتجرع الصاب والعلقم! طعن مع الدين الجريح. وأهين مع الدين المهان! فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى الله!

فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي، وهم رازحون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يقال: إن الأمة المصرية خاصة، والأمة الإسلامية جمعاء، يجب أن تراجع نفسها طويلاً قبل يوم الحساب...

وسواء صحا الضمير الراقد أم بقي غافياً، فإن أعداء الإسلام لم يتغيروا في مواقفهم منه. لقد تحركوا مستغلين الضربات التي أطارت رشده ومزقت شمله، فطمع البعض في تهويده، والبعض في تنصيره، والبعض في تكفيره، كفراً يقطع علاقته بتة بالله والمرسلين أجمعين....

وتلك نتائج لم يكن منها بد للسياسة التي سلكها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر....

وما ألفنا هذا الكتاب إلا بعد ما رأينا أن ارتداد مصر عن الإسلام، خطة يتحرك بها كثيرون يعلنون بها ولا يستترون.....!!

وظاهر أن جمال عبد الناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على الله وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله لورد كرومر.

ما تكون (دانشواى) بجانب مجازر طرة والحربي وغيرهما من سجون؟

ومعلوم أن مصر، والعرب كلهم، والمسلمين في القارات الخمس مكلفون بالتفريط في عقيدتهم وأرضهم.... وأن مأساة فلسطين نموذج لمآسي أخرى عديدة.

ومعلوم أن الحرب المعلنة علينا تعتمد على جماح ديني عند اليهود، والنصارى أعنى المستعمرين منهم، وأن الدفاع لن يتماسك أو يقم أو ينجح إلا بعاطفة دينية مقابلة ترد الجماح المعتدي.

لقد كانت رسالة الزعيم المصري أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يطارد كل أثاره من الإسلام.... أي كان يمهد للتعصب الزاحف ويدع الطريق أمامه مفتوحاً. ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا

وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ [هود: ١٨، ١٩]»[1].

وكان خلاف الشيخ مع الأستاذ الهضيبي وقرار فصله من الجماعة، سبباً في نجاته من الاعتقال أوائل سنة ١٩٥٤م، وأواخرها، وكذلك سنة ١٩٦٥م، وإن كان قد أخذ إلى معتقل طرة لمدة عشرة أيام، ثم أفرج عنه، فقد كان عبد الناصر حريصاً على تثبيت الفرقة بين قادة الإخوان، وتأجيج نارها ما استطاع، واعتقال الجميع يقربهم بعضهم من بعض ــ فالشدائد تؤلف بين المختلفين، والمصائب يجمعن المصابين.

ولكن الشيخ وإن عوفي من الاعتقال في هذه السنين السود، كان قلبه يتقطع أسى من أجل إخوانه، وكم رآه زواره تذرف عينه العبرات ألماً لما يلقاه البرآء الأطهار، وراء الأسوار، وما تلقاه الحرائر من أمهات وزوجات وبنات وأطفال اعتقل عائلوهم أو قتلوا. ورغم قساوة الظروف، وانتشار العيون التي للمكاتب، والآذان التي للجدران، لم يغلق بابه في وجه أحد قصده، بل كان مكتبه وبيته وقلبه، كلها مفتوحة لإخوانه وأهليهم وذويهم، كما شهد بذلك كل من كانوا على صلة بالشيخ في تلك الفترة العصيبة، لا ردها الله.

وأقول هنا: رُبَّ ضارَّة نافعة، ومن الشرِّ ما يأتي بالخير.

وكم لله من سر خفي يدق خفاه عن فهم الذكي!

وقد كان التآمر على يوسف الصديق عليه السلام، وإلقاؤه في غيابة الجب، وبيعه بثمن بخس دراهم معدودة، محنة أي محنة ليوسف عليه السلام، ولكن كان في طيها منحة له ولمصر، ولما حول مصر، فقد كان القدر يعده لينقذها، بفضل الله، ثم بحسن تخطيطه وتدبيره وتنفيذه من مجاعة ماحقة، وقحط لا يبقى ولا يذر:

---

(١) قذائف الحق: ص ١٠٨، ١٠٩.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف: ٥٦].

وكذلك كان خلاف الشيخ الغزالي مع الأستاذ الهضيبي، وفصله من جماعة الإخوان، وهو ما آلمه أشد الإيلام، وضاق به أعظم الضيق، وما أسينا له جميعاً أبلغ الأسى، كان منحة ورحمة من الله من جهات أخرى لم نكن نعلمها.

فقد بقي الغزالي في الساحة يتحدث عن الإسلام، ويبلغ رسالته وإن لم تكن له الحرية الكاملة، ولكن صوته كان مسموعاً، وكاد يكون هو الصوت الإسلامي الوحيد البيّن، الذي يجأر بالدعوة إلى الله، وسط الضوضاء الصاخبة التي تنعق بتقديس الطاغوت، وكان هو الشمعة الهادية[1] في تلك الفترة الحالكة الظلمات، وكان لسان هذه الشمعة يهتز ويتأرجح ويوشك أن ينطفىء، كلما هبت الريح من يمين وشمال، لولا أن لله مشيئة وحكمة أن يظل نورها مضيئاً، حتى تبزغ شمس الحرية يوماً.

(١) كان جيلنا هو هذا الجيل الذي أطفئت من حوله كل السرج، وزكمت أنوفه روائح التعذيب البشع والملاحقات التي كان بعض قادتها يتباهون علناً بأنهم (يعلمون ما في الصدور) ولم يكن إلا الشيخ الغزالي.. هو الشمعة التي نأوى إليها في ليل الشيوعية والشمولية الذي يرعى ظلامه القهر البوليسي ومراكز القوى ورئاسة عبد الناصر. (ع.ع).